معارج البيان!

يشد انتباهك ويدهشك كما أدهش المتدبرين فيه، والمتأملين في دقائق نظمه من أساطين البيان! ذلك هو القرآن في معارج بيانه، التي لايستطيع البيان البشري أن يرتقي فيها، فضلا أن يدانيها.

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة إبراهيم 36]

فختمت فاصلة البيان (فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) بعد ذكر الإعراض والعصيان عن الدعوة والإيمان!

وكان المتوقع أن هذا مقام عزة وجبروت وانتقام؛ فتكون (فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

هكذا سيكون معراج البيان البشري لو كان.

ويدهشنا في مقام آخر؛ فيكون العروج البياني فوق طاقة البيان البشري، القاصر في الفهم، العاجز في الأداء.

وذلك في مقام ذكر عيسى عليه السلام في خطابه في موقف الحساب (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فإن قوله: (وإن تغفر لهم) ترشيح لمجيء فاصلة الختام (فإنك أنت الغفور الرحيم) وهذا ما يستطيعه البيان البشري، وهذا معراجه القاصر في الأفهام، ولو كان الأمر كذلك لتبادلت فواصل الختام في المقامين.

لكن معارج البيان الإلهي فوق الطاقة البشرية!

وحسب أرباب العقول من فرسان البيان أن يمعنوا النظر، و ينعموا الفكر في ربات الخدور من المعاني المستترات، في دقائق النظم والعبارات!

ذلك أن مقام الخليل عليه السلام خطاب في الدنيا؛ فهو يرجو لمن عصاه الأوبة والتوبة والإيمان؛ فكان الترغيب بفاصلة الختام (فإنك غفور رحيم).

ومقام عيسى عليه السلام خطاب في موقف الحساب من الآخرة، وهو موقف عزة وجبروت وقوة؛ فإذا عذبهم فمن قوة و عزة، وإن غفر لهم- مع استحقاقهم العقوبة- فما ذلك إلا لحكمة.

فبأي آلاء البيان يكذبان؟!